الغاية تبرر الواسطة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

استيقظت من النوم منشرح الصدر ، صافى النفس ... واتجهت نحو النافذة ، وأخذت أستنشق نسيم الربيع العليل ... ونظرت إلى الحديقة المزدهرة الوارفة ، وأخذت أسرح الطرف فى جمال الكون ، ثم رحت أذرع الحجرة جيئة وذهاباً ، نشطاً خفيفاً ، وأخذت أصفر لحناً خافتاً ، ثم توجهت إلى الراديو وأدرته ، فسمعت المذيع يردد : « شمال ... يمين ... شمال ... يمين ... » ، فخلعت سترة (بجامتى) ، وانتظرت التعليمات الجديدة التى سيصدرها المذيع لأندمج معه فى الباقى من تمرينات الصباح الرياضية

— شمال ... يمين ... شمال ... يمين ... هب عال ... انتهت تمرينات هذا الصباح .

أقفلت الراديو بحنق ، وأنا أوجه إليه الكلام :

— لا بأس ، سأقوم ببعض التمرينات وحدى

استلقيت على الأرض ، ووضعت يدىّ تحت رأسى ، ورفعت رجلى إلى أعلى . وهنا دخلت زوجى الحجرة :

— ما شاء الله ... ما هذا ؟ هيا يا رجل إلى الشرفة لتتناول الشاى !

— أحضريه هنا

— خذ (بيجامتك) وهيا !

— قلت لك أحضريه هنا !

ولما كانت زوجى تعلم صلابة رأسى ، فأنها خرجت وعادت وفى يدها فنجان الشاى ، وقالت :

— قم ، وخذ الفنجان .

— لا .

— أتريد أن أقف هكذا ؟

— لا .

— أين أضع الفنجان ؟

وهنا دق الجرس الخارجى فتلفتت زوجى عن مكان تضع فيه الفنجان قبل أن تذهب لترى من الطارق ، فلم تجد أقرب من رجلىّ المرفوعتين وهرولت نحو الباب

— تفضل . تفضل . إنه هنا فى هذه الغرفة

— فى هذه الغرفة ؟ ترى من يكون ؟ حاولت أن أقوم ونظرت إلى الفنجان فرأيت البخار يتصاعد منه فخشيت أن أتحرك لئلا يسكب علىّ ذلك الشاى المغلى ؛ فاستسلمت لله وبقيت فى مكانى ووضعت أصبعى فى أذنى وأغمضت عينى حتى لا أسمع ضحكات السخرية ، ولا أرى ما سيرسم على وجه الزائر المحترم فتحت نصف عينى فرأيت أخى يقهقه فأخرجت أصبعى من أذنى وزفرت زفير الاطمئنان

— حسبتك غريباً

— مذنب ؟

— لا والله

— ماذا فعلت حتى وجب عليك هذا العقاب ؟

— لا شيء . أقوم بتمرينات لإزالة السمنة فقط ...

— أية سمنة وأنت لا تزن أكثر من ٥٠ كيلو ؟

— والله لا أدرى

وتململت فى رقدتى ، وأشرت إلى أخى ليرفع الفنجان فقال :

— سأفعل

ثم رفع الفنجان وترك الطبق ، ورشف منه رشفة ، ثم وضعه ثانية فوق رجلى وقال :

— عندى خبر سار أريد أن أسره إليك

— حسن . ارفع الفنجان لنتحادث

— لا . هكذا أحسن

فنظرت إلى زوجى مستعطفاً فهزت لى رأسها علامة النفى ، وانحنى أخى حتى أصبح فمه بالقرب من أذنى وأسر إلىّ بكلمة فصحت :

— أهنئك . ثم وجهت الكلام إلى زوجى :

— ألا تهنئينه ؟ ما هكذا تقابل الأنباء السارة

— على م ؟

— لن أقول لك حتى ترفعى هذا الفنجان اللعين

فتقدمت ومدت يدها إلى الفنجان وقالت وهى ترفعه :

— أمرى لله . قل

— إن علياً سيتزوج

— حقاً ؟

— هذا ما قاله لى

— ولكن ممن ؟

— آه ... لم تقل لى ممن يا على !

— من حسنية

— حسنية ! حسنية من ؟

— ابنة جيراننا فى شارع بين الجنائن . أظنك تذكرها ؟

— آه !

فالتفتت زوجى إلى على وقالت :

— أهى جميلة ؟

— مدهشة

— ومتى ستتزوج ؟

— لم أحدد الوقت بعد

ثم التفتت إلى وقالت : فيم تفكر ؟

— لا شيء . لا شيء . لقد شعرت بجوع فقط

— إذن هيا لنتناول الإفطار

— هيا يا على

انتقلنا إلى الشرفة ودار الحديث بين زوجى وأخى عن حسنية وجمالها وكمالها وحسنها وأدبها ومشيتها وزيها ولم أشترك فى الحديث إلا بإيماء الرأس علامة الموافقة على كل ما يقولون . كنت حاضراً معهما بجسمى فقط . أما أفكارى فقد كانت تسبح فى ذكريات الماضى القريب يوم كانت حسنية تمرح وتلعب وتسهر وتفجر معنا أنا ومحمود . لقد هممت أكثر من مرة بأن أصيح : « لا يا على ، إن هذا الزواج لن يكون . إنها لا تصلح لك » . ولكنى خشيت أن أضطر لذكر التفاصيل . إن زوجى المسكينة تعتقد أنى طفل كبير لا ماضى لى ، فكيف أذكر أمامها الآن أنى كسائر الناس لى ماض ، بل أمتاز عن سائر الناس بماض حافل زاخر بالمغامرات والفجور . إن غلطتى الكبرى هى أنى لم أذكر لزوجى بعد زفافنا أنى كسائر البشر لى ماض . ماذا كان يحدث لو أننى ذكرت لها كل شيء ثم أعقبت ذلك بقولى :

— كان هذا قبل أن أراك وقبل أن أتزوجك أما اليوم فإنى أدفن هذا الماضى للأبد

نعم لقد كانت غلطة كبرى ومضت فلا يجب أن أبكى على اللبن بعد إراقته كما يقول المثل الإنجليزى

سأنتظر إلى أن يستأذن أخى وأخرج معه وأقص عليه كل شىء، ولكن لا؛ إن هذا مما يزيد الطين بلة لأن أخى أرعن لا يتردد فى إفشاء قصتنا ، وسوف لا يمضى وقت طويل حتى تكون القصة قد بلغت زوجى مبالغاً فيها منمقة حواشيها فأفقد بذلك سمعتى الطيبة عنـد أخى وزوجتى . إذن لأبحث عن حل آخر يحفظ لى سمعتى ويمنع هذا الزواج الشائن

قام أخى مستأذناً وسلم علينا وانصرف فدخلت إلى حجرة مكتبى وغصت فى كرسى كبير ورحت أفكر فى حسنية والحل المنشود . وجدت نفسى أقلب صفحات الماضى فرأيت بعين خيالى حجرة استذكارى أيام كنت طالباً فى السنة النهائية بكلية التجارة ورأيت نفسى جالساً على كرسى بالقرب من الشرفة وفى يدى كتاب (الإفلاس) أطالع فيه . رفعت عينى عن الكتاب فرأيت فى البيت المقابل فتاة جالسة قبالتى تطالع فى كتاب، فلم أهتم بها أول الأمر، وتكررت جلستى وتكررت جلستها؛ وكنت إذا انتهيت من استذكارى انتهت من استذكارها، وإذا ابتدأتُ ابتدأتْ ، وإذا أضأت نور حجرتى أضاءت نور حجرتها، وإذا أطفأته أطفأته. وفى ذات ليلة استجمعت شجاعتى وأومأت لها برأسى مسلماً فأومأت لى برأسها، وتكرر الإيماء بالرأس والابتسام والتطلع نحوها بين الفينة والفينة

وفى صباح يوم حار أخذت قطعة الحديد الصغيرة التى أمرن بها عضلاتى وخرجت فى الشرفة لأقوم ببعض التمرينات فرأيت حسنية تظهر ثم تختفى ثم تعود وفى يدها مكنسة ثم قبضت على عصاها بيديها كما أقبض على قطعة الحديد وراحت تقلدنى فإذا رفعت قطعة الحديد إلى أعلى رفعت مكنستها إلى أعلى، وإذا مددت ذراعى مدت ذراعيها وإذا رفعت قطعة الحديد بيد واحدة رفعت مكنستها بيد واحدة وهكذا . وضعت قطعة الحديد على الأرض فوضعت مكنستها على الأرض . أخذت أملأ صدرى بالهواء وأخذت تملأ صدرها بالهواء . حككت رأسى بأظافرى فحكت رأسها بأظافرها . فقلت لنفسى : يا لها من فتاة لعوب

تركت الشرفة ودخلت لأحضر قميصى ثم عدت وأخذت ألبسه فى الشرفة فمدت الفتاة يدها إلى مشجب قريب وتناولت قميص أخيها وأخذت تلبسه؛ ربطت رباط رقبتى فربطت رباط رقبة أخيها. أحضرت سروال بذلتى وخلعت سروال (بيجامتى) وأخذت ألبسه فأحضرت سروال أخيها ولبسته فوق جلبابها. أحضرت سترتى وطربوشى فلبست سترة أخيها وطربوشه فبدت فى شكل مضحك ، فضحكت وضحكت، فأشرت لها هيا إلى النزول فهزت رأسها علامة النفى ورسمت بأصبعها نصف دائرة من اليمين إلى اليسار أى سأقابلك غداً فأشرت إليها «متى» فأشارت بأربع أصابع ثم وضعت السبابتين متقاطعتين علامة النصف ففهمت أنها ستقابلنى فى الرابعة والنصف ، فقبلت أناملى وبسطت كفى ونفخت فيها ليحمل النسيم لها القبلة فأطرقت برأسها وهرولت نحو الداخل فقلت لنفسى :

— يا لها من فتاة لعوب

تقابلنا وتكررت المقابلات وسهرنا وامتدت

بنا السهرات ولعبنا ولهونا وسكرنا بخمر القبلات ووسوس لنا الشيطان فشربنا المحرمات

وفى يوم من أيام الصيف وقفت حسنية فى حجرتها ووقفت فى الشرفة فأومأت إلى برأسها وأومأت إليها برأسى تحيياً وأشارت بأصبعها إلى صدرها ثم راحت تحرك ذراعها الأيمن كما يحرك القطار ذراعه وتتحرك فى الغرفة جيئة وذهاباً ففهمت أنها تريد أن تخبرنى بسفرها فوضعت كفّ متقابلين أمام صدرى وحركتهما إلى أن أصبح بطنهما إلى أعلى أى «إلى أين ؟» فأخذت تقلد من يسبح فى الماء بتحريك ذراعيها ومد رقبتها ففهمت أنها ستسافر إلى الأسكندرية، فأشرت لها ثانية إشارة أى مكان ؟ فوقفت تفكر قليلا ثم نظرت إلى اليمين وأشارت بأصبعها إلى قبة جامع قريب من منزلينا ثم هزت رأسها وصفرت وقفزت ورقصت علامة البشر والسرور ثم أشارت بأصبعها إلىّ ثم وضعته على صدغها أى «هل فهمت ؟» فأومأت لها برأسى « أى نعم » وعرفت من الجامع والقفز والرقص أنها ستسافر إلى سيدى بشر

ظهرت نتيجة الامتحان فحزمت أمتعتى وسافرت إلى الأسكندرية، وعلى وجه التحقيق إلى سيدى بشر. نزلت بمحطة سيدى جابر فى السابعة مساء ولم أفكر فى أن أبحث عن مكان أضع فيه أمتعتى بل أسرعت إلى الكورنيش ، وكان يعج بالناس عجيجاً ورحت أتفرس فى وجوه المارة لعلى أعثر على حسنية . سرت إلى أن كلت قدماى وتعبت عيناى من كثرة الانتقال من وجه لآخر، فتركت الكورنيش وذهبت إلى بنسيون وضعت فيه أمتعتى واسترحت قليلاً ، وغيرت ملابسى وخرجت أستأنف البحث فى الملاهى المبعثرة على الكورنيش . دخلت كازينو الشاطبى ، وبيلافستا ، ولما لم أجدها توجهت إلى سيدى بشر وملاهيه ، دخلت الميزونيت والمياحى وبحثت ونقبت ولكنى لم أعثر عليها . سرت على الكورنيش يائساً ، وعند بقعة هادئة مظلمة لمحت شابين يتعانقان فاقتربت منهما بدافع الفضول . نظرت إلى الشاب ونظر إلىّ وصاح : أهلاً . أهلاً - عدلى ومد إلى يده مصافحاً وقال : متى جئت إلى الأسكندرية ؟

— الآن فقط . كيف حالك يا محمود ؟

ثم التفت إلى الفتاة، وقلت لها بصوت هادىء:

— مساء الخير يا حسنية

فردت علىّ بإيماءة ؛ فقال محمود :

— أصدقاء ؟ لا لزوم لوساطتى فى التعارف إذن

— أظن ذلك

وسرنا على الكورنيش نحن الثلاثة ، وشهدت الأسكندرية وملاهيها وشواطئها وقواربها ومتنزهاتها وآثارها

* * *

تململت فى كرسى بحجرة المكتب ، وأخذت أتمتم : هذه هى حسنية التى يرغب أخى فى الزواج منها . إن هذا لن يكون ، سأبذل كل ما فى جهدى وسأتبع الطرق المشروعة وغير المشروعة لأمنع هذا الزواج . سأذهب إلى محمود لعلى أجد عنده مخرجاً !

نهضت ولبست ملابسى وتوجهت إلى محمود ، وفى الطريق خطر لى خاطر ، ولكنى ترددت فى تنفيذه ، وقام فى نفسى صراع بين الإقدام والإحجام ، وأخيراً وطنت العزم على تنفيذه ، ورحت أطمئن نفسى بأن الغاية تبرر الواسطة

طرقت الباب ، فسمعت صوتاً آتياً من بعيد يسأل عن الطارق :

— من ؟

— أنا عدلى

— أنا فى الحمام الآن ، ادفع زجاج الباب ، ثم أمدد يدك من بين القضبان الحديدية ، وافتح الباب

ففعلت ذلك ، وفتحت الباب ، ودخلت ، وتوجهت نحو الحمام :

— محمود

— أفندم

— لى عندك حاجة ؟

— ما هى ؟ !

— سأنتظرك حتى تنتهى

— حسن

— اسمع !

— ماذا ؟ ألم تقل إنك ستنتظر

— ألا زلت تقابل حسنية ؟

— مالك ولهذا ؟ لقد تزوجت وأصبحت من عباد الله الصالحات

— أجب ودع الهذر . ألا زلت تقابل حسنية ؟

— أهزك الشوق ؟

— أوه . أجب !

ففتح محمود باب الحمام وأطل برأسه بعد أن رفع يده بالتحية العسكرية وقال :

— فى كل وقت يا أفندم

— حسن !

— أى حسن فى ذلك ؟

— إن أخى يرغب فى الزواج منها

— لا غرابة فى ذلك فهو « مقطف » كما كنا نسمى الرجال الخام

— دع عنك الهجون الآن

— ماذا تريد منى أن أفعل ؟

— سأدفع لك ثمن تذكرتين لتدخل بهما أنت وحسنية إحدى دور السينما كما سأدفع لك ثمن تذكرتين لى ولأخى على أن تختار مقعدينا خلف مقعديكما مباشرة

وفتح باب الحمام وخرج محمود ومد يده وقال : « هات »

فمددت يدى فى جيبى وأخرجت ثلاثين قرشاً

— خذ . اختر المقاعد فى طرف الصالة واختر يوماً من الأيام الراكدة ـ الأربعاء مثلاً ـ فاهم ؟

— كل الفهم

* * *

دخل أخى حجرتى وقال : ألم تلبس بعد ؟ هل عدلت عن الذهاب إلى السينما ؟

— لا يا عزيزى

— الساعة السادسة والربع

— لا بأس ... إنى أحب أن أدخل السينما متأخراً كالناس العظام

— أوه ؛ ألا زلت « قزوحاً »

لبست ملابسى وتوجهنا إلى السينما ودخلنا فى الظلام واحتللنا أماكننا . مال محمود على حسنية فلكزت أخى وأشرت له إليهما فهمس : «دعهما» فهمست « يا لك من عاشق لا تحب أن تفسد على العاشقين صفوة ساعاتهم ... »

مال محمود عليها وطبع قبلة صامتة على خدها

فهمست لأخى : «يا للوقاحة ! إنه يقبلها»

— لعلها خطيبته

— خطيبته ؟ يقبلها هنا . إنها وقاحة

أضيئت الأنوار فى فترة الاستراحة، فتطلع أخى إليهما فشحب لونه ، وتغيرت هيأته ، وأخذ يشهق ويزفر بصوت مسموع ولم يستطع أن يخفى اضطرابه فسألته ما به ، فأجاب :

— لا شىء . . . تعال نخرج من هنا

خرجنا إلى الردهة الخارجية فكررت عليه السؤال فهمس « إنها حسنية »

— من هى ؟

— تلك التى كان يقبلها

— حسنية خطيبتك ؟

— لا ، ليست خطيبتى لقد كنت أعمى

ورن الجرس فى الردهة لينبه المشاهدين إلى قرب استئناف العرض فجذبت أخى لنخرج فقال :

— لا ، سأبقى إلى نهاية الحفلة وسأريها نفسى حتى لا تحاول أن تلاحقنى بعد الآن ، ثم أسرع نحو مقعدها ومر من أمامها ونظر إليها نظرة أودعها كل احتقاره وعاد إلى مكانه بجوارى

شعرت براحة، وغمرنى السرور، لأنى استطعت أن أحافظ على سمعتى الطيبة ، وأن أقطع علاقة أخى بها . ولما أضيئت الأنوار أسرع أخى بالخروج ، فالتفت إلى حسنية ومحمود ، ورفعت ذراعى ، ولوحت لهما بيدى إشارة « الوداع إلى الأبد »

عبد الحميد جودة السحار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

مصر

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزئين

خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — عابدين)